

الفصل السادس

الدعاء عند مقابر الصالحين

روى أبو علي الموصلي بسنده حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يزيد بن الحباب حدثنا جعفر بن ابراهيم «من ولد ذى الجناحين» حدثنا علي بن عمر عن أبيه عن علي بن الحسن «أنه رأى رجلاً يجرى إلى قبره كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه. فقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن النبي ﷺ؟ قال: لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تليكم يلغنى أينما كنتم»^(١).

وروى الترمذي عن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يكره أن توطأ القبور إعظاماً للمسلمين وإكراماً لهم، ويكره أن تتخذ القبور مسجداً وقبلةً يُصلى إليها. وقد جاء على لسان النبي ﷺ ما يدل على أن بنى إسرائيل بلغوا في ذلك كله القدر الملعون «لعن الله بنى إسرائيل اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» والأصل في عبادة الأصنام أنها كانت هكذا.

رأى له مؤيدوه^(٢):

فكثيراً ما يضمّر الإنسان في نفسه أمراً وهو لا يشعر به، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة خفية لا يحس باهتمام نفسه عليها ولا يرى مثلاً لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب قالوا إنا لانعبدكم وإنما نتوسل بهم إلى الله، كأهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وإن أكبر مظهر

(١) وأخرجه محمد بن عبد الواحد المقدسي الحافظ في مستخرجه.

(٢) د. موسى الخطيب.

لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين يلتمسون إمداده ومعونتهم، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

وقال الإمام العلامة مولانا الألوسي «قدس سره» في تفسيره روح المعاني عند قوله تعالى في سورة يونس: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(١) «وَأَيَّا مَا كَانَ فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحالة، وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم في بر أو بحر دعوا من لا يضر ولا ينفع ولا يرى ولا يسمع، فمنهم من يدعو الخضر واليابس، ومنهم من ينادى أبا الحميس والعباس، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأئمة، ولا ترى أحداً فيهم إلا القليل يخص مولاه بتضرعه ودعائه، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فبالله تعالى أى الفريقين من هذه الحيشة أهدي سبيلاً، وأى الداعين أقوم قبلاً، وإلى الله سبحانه المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة وغرقت سفينة الشريعة، واتخذت الاستعانة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الخوف» انتهى

وحديث ابن عباس^(٢) «وإذا استعنت فاستعن بالله، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) الآية... وقوله تعالى ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٤) انتهى.

(١) يونس: ٢٢.

(٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله يحفظك، احفظ الله يحفظك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي وقال: حديث صحيح.

(٣) الزمر: ٤٥.

(٤) الإسراء: ١١٠.

وقال الإمام زين العابدين السَّجَّاد: «كيف يسأل محتاج محتاجاً» وقال الإمام الغزالي: «المؤمن لا يجعل بينه وبين الله تعالى وسائط في الطلب» قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١).

لقد جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية وليعتق رقابهم من رق العبودية فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لدى سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى، فكانوا ذوى أنفة وعزة وإياء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده في سلطانه قف مكانك، ولا تغلُ في تقدير مقدار نفسك، فإِنما أنت عبد مخلوق لاربِّ معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ماداخلها من الشرك الباطن تارة، والظاهر أخرى فقد ذلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين. والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم، من سعادة الحياة وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ماأضاعوه من عقيدة التوحيد.

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه، ويتخذونه وراءهم ظهيراً، فإذا نزلت بهم جائحة، أو ألت بهم ملمة ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن يتادوه!

ثم تعال معي نتأمل سوياً قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١).

وقوله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٢) وقوله على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾^(٣).

فهل يكون الأولياء.. أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين؟! هل تعلم أن النبي ﷺ حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثاً ولعباً، أم مخافة أن تعبد للمسلمين جاهليتهم الأولى! وأى فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، مادام كل منها يجر إلى الشرك ويفسد عقيدة التوحيد؟!

حوار لا بد منه^(٤):

قال صاحبي: على رسلك يا أخى .. لماذا كل هذا؟

قلت: وهل بعد هذا بيان؟

قال: أنا لست معك فيما تقول.. بل إنى أخالفك الراى فيما ذهبت إليه وقد عودتنا أن تقول الراى وتستمع إلى الراى الآخر.. فهل عندك مانع من أن تسمع وجهة نظرى.. **قلت:** لا بأس.. أسمع.

قال: أخرج الديلمى قوله ﷺ: «من أراد التوسل بى وأن يكون له عندى يد أشفع بها يوم القيامة فليصل أهل بيتى ويدخل السرور عليهم»، وأخرج الإمام أحمد أن النبى ﷺ أخذ بيدى الحسن والحسين وقال: «من أحببني وأحب هذين وأمهما وأباهما كان معى فى درجتى يوم القيامة» وقال ﷺ: «حُسين منى وأنا من حُسين، اللهم أحب من أحب حسيناً، حُسين سبط من الأسباط».

(١) النمل: ٦٥.

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) الأعراف: ١٨٨.

(٤) كاتب الحوار: الدكتور موسى الخطيب

وأخرج ابن النجار في تاريخه أن النبي ﷺ قال: «الكل شيء أساس وأساس الإسلام حب رسول الله ﷺ وحب أهل بيته».

وقال ﷺ: «أهل بيتي أمان لأمتي».

وأخرج الديلمي: «أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي وأصحابي». .
وعن علي كرم الله وجهه: «أدبوا أولادكم على ثلاث خصال. . حب نبيكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن».

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١).

قلت: الحق في تفسير هذه الآية هو مافسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبه عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت طاووساً يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبیر: قربي آل محمد. فقال ابن عباس: عجبت إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة^(٢).

لقد كان للنبي ﷺ قرابة في جميع بطون قريش ولما أرسله ربه وكذبه وآذوه أمره سبحانه أن يقول لهم:

يا قوم إن رفضتم الإيمان برسائتي فلا أطلب منكم إلا أن تكفروا بإذاءكم عني، وتتركوني وشأني مع غيركم، مراعين بذلك حق القرابة وصلة الرحم التي بيني وبينكم، فلا تؤذوني ولا يصح أن يكون غيركم من العرب أحفظ لكرامتي منكم، ولا تنكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً

(١) الشورى: ٢٣

(٢) تفرد به البخاري.

ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلى وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين^(١).

قال صاحبي: اعلم يا أخى أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف فى الكون بالمنع والإعطاء، وما الخلق من ملائكة وأنبياء وأولياء إلا وسائط وأسباب قد يجرى الله تعالى الخير على أيديهم من غير أن يكون لهم فى ذلك إيجاد ولا تأثير.

ولقد جاء فى بعض أحاديث الإسراء: أنه ﷺ لما أسرى به وهو راكب البراق وبصحبه جبريل عليه السلام، سار حتى بلغوا أرضاً ذات نخل، فقال له جبريل: انزل فصل هنا، قال: فصلت ثم ركب وقال جبريل أتدرى أين صليت قلت: لا. قال: صليت بطيبة وإليها المهاجرة، فانطلق به البراق، فقال له جبريل: انزل فصل، قال: فصلت، فقال: أتدرى أين صليت قلت: لا، فقال: صليت بطور سيناء عند شجرة موسى حيث كلمه ربه، ثم انطلق به البراق فقال له: انزل فصل، قال: فصلت، فقال: أتدرى أين صليت قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم «إلى آخر ما جاء فى الحديث» الذى ورد بروايات.

فيؤخذ من هنا أن كل موضع وأثر للأنبياء عليهم الصلاة والسلام يصلى فيه ويتبرك به ويحترم خصوصاً ما ينسب لنبينا الكريم سيدنا محمد ﷺ الذى نحن من أمته ولله الحمد.

تَبَرُّكُ الصَّحَابَةِ بِآثَارِ الرَّسُولِ ﷺ :

ولقد حرص أصحاب الرسول ﷺ على آثاره الشريفة وكانوا يتبركون بها حتى أنهم كادوا يقتتلون على ما يتقاطر من أعضائه عليه الصلاة والسلام من الماء إذا تَوَضَّأَ وهو يرى ذلك ويفرهم عليه فكان ذلك دليلاً على جواز التبرُّك به شرعاً.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

روى الشيخان في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أنه قال: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجمرة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي ﷺ أعرابي: فقال: ألا تنجز لى ما وعدتني، فقال له أبشر، فقال قد أكثرت على من أبشر فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: «رد البشرى فأقبلا أنتما».. قالوا: قبلنا ثم دعا بقدر فيه ماء فغسل يديه ووجهه ومج فيه، ثم قال: إشربا منه وافرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا، فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما فأفضلا لها منه طائفة^(١).

وأخرج البخاري في صحيحه في «باب خاتم النبوة» بإسناده إلى الجعيد بن عبد الرحمن قال سمعت السائب بن يزيد قال: ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وقع فمصح رأسي ودعا لى بالبركة وتوضأ فشربت من وضوئه.. إلخ.

وأخرج البخاري في كتاب اللباس بإسناده إلى أبي جحيفة قال: أتيت النبي ﷺ وهو فى قبة حمراء من آدم «جلد» ورأيت بلالاً أخذ وضوء النبي ﷺ والناس يبتدرون الوضوء فمن أصاب منه شيئاً مسح به ومن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلال يد صاحبه للتبرك به لكونه مس جملته الشريف ﷺ.

وفى الصحيح أنه ﷺ كان إذا حلق دفع شعره إلى بعض أصحابه. كأبى طلحة الأنصاري ليفرقه على أصحابه للتبرك به.

التبرك بآثاره ﷺ كان أمراً شائعاً بين أصحابه:

وحرصهم على ذلك وإزدحامهم عليه حتى ينال منه أحدهم الشعرة والشعرتين فيه أقوى دليل على أن التبرك بآثاره ﷺ كان أمراً مطرداً شائعاً بين أصحابه رضى الله عنهم سائغاً شرعاً لإقرارهم عليه، فلا ينكره إلا من لم تخالط قلبه بشاشة الإيمان (انتهى من زاد المسلم بزيادة).

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي «غزوة الطائف» وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة في باب فضائل أبي موسى الأشعري رضى الله عنه.

وفى الشفا كانت شعرات من شعره عليه السلام فى قلنسوة خالد بن الوليد رضى الله عنه فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر «إنتهى من تاريخ الخصاص» ببركته ﷺ، ولما سقطت عنه قلنسوته يوم اليمامة شد عليها شدة حتى أخذها فأنكر عليه بعض الصحابة ذلك قبل علمهم بمافيها من شعر رسول الله ﷺ، فقال خالد: لم أفعل ذلك لقيمة القلنسوة لكن كرهت أن تقع بأيدي المشركين وفيها شعر من النبى ﷺ فرفضوا عنه وأثنوا عليه.

وأخرج البخارى فى كتاب اللباس بإسناده إلى إسرائيل بن يونس عن عثمان بن عبد الله مولى آل طلحة أنه قال أرسلنى أهلى إلى أم سلمة زوج النبى ﷺ بقدرح من ماء «وقبض إسرائيل ثلاث أصابع» من فضة فيه شعر من شعر النبى ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شيء إليها مخضته فاطلعت فى الجللجل فرأيت شعراً حمراً^(١).

قال القسطلانى والحاصل من معنى هذا الحديث أن أم سلمة كان عندها شعرات من شعر النبى ﷺ حمر محفوظة للتبرك فى شيء مثل الجللجل وكان الناس يستشفون بها من المرض، فتارة يجعلونها فى قدح من ماء ويشربونه وتارة فى إجانة من الماء فيجلسون فى الماء الذى فيه الجللجل الذى فيه تلك الشعرات الشريفة (أ.هـ) هكذا كان دأب الصحابة وتابعيهم رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء فى الصحيحين عن سعيد بن المسيب أن أبا أيوب أخذ من لحية رسول الله ﷺ شيئاً فقال: لا يصيبك سوء يا أبا أيوب، وفيه أيضاً: روى ابن السكن من طريق صفوان بن هيرة عن أبيه قال: قال ثابت البنانى قال لى أنس بن مالك هذه شعرة من شعر الرسول ﷺ، فضعها تحت لسانى قال فوضعها تحت لسانه فدُفنَ وهي تحت لسانه^(٢).

(١) قوله وقبض إسرائيل ثلاث أصابع إشارة إلى صغر القدح، وقال الكرماني هو إشارة إلى عدد إرسال عثمان المذكور إلى أم سلمة. وقوله من فضة بيان لجنس القدح. وهذا ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين كما نقله ابن حجر. وقوله فيه أى فى القدح، وقوله مخضته هو من جملة الآتية.

والجلجل بضم الجيمين هو شيء يشبه الجرس يتخذ من ذهب أو فضة، أو تحلّس يوضع فيه ما يراد صيانه. وهذا الحديث أخرجه ابن ماجه فى اللباس من ستة أيضاً.

(٢) كتاب زاد المسلم جه ترجمة أبى أيوب الأنصارى.

وجاء في كتاب «سيرة خير العباد المجردة من زاد المعاد» مانصه: وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما قالت: هذه جبة رسول الله ﷺ، فأخرجت جبة طيالبسية خمروانية لها لينة ديباج وفرجاها مكفوفان بالديباج فقالت: هذه كانت عند عائشة رضى الله عنها حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبی ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمريض يستشفى بها «انتهى».

وقال صاحب العقد الفريد في شأن وفاة معاوية رضى الله تعالى عنه: لما ثقل معاوية ويزيد غائب، أقبل يزيد فوجد عثمان بن محمد بن أبي سفيان جالساً فأخذ بيده ودخل على معاوية وهو يجود بنفسه، فكلمه يزيد فلم يكلمه فبكى يزيد. ثم قال معاوية أي بني إن أعظم ما أخاف الله فيه ما كنت أصنع بك. يا بني إني خرجت مع رسول الله ﷺ فكان إذا مضى لحاجته وتوضأ أصب الماء على يديه، فنظر إلى قميص لي قد انخرق، فقال لي: يا معاوية ألا أكسوك قميصاً؟ قلت: بلى، فكان قميصاً لم ألبسه إلا لبسة واحدة وهو عندي، واجتزأت يوم فأخذت جزارة شعره وقلامة أظفاره فجعلت عندي ذلك في قارورة، فإذا مت يا بني فاغسلني ثم اجعل ذلك الشعر والأظفار في عيني ومنخري وفمى ثم اجعل قميص رسول الله ﷺ شعاراً من تحت كفني إن نفع شيء نفع هذا. أ.هـ.

وعن أم ثابت كبشة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنهما قالت: دخل على رسول الله ﷺ فشرّب من قربة معلقة قائماً فقامت إلى فيها فقطعته^(١) قال شارح هذا الحديث في رياض الصالحين: وإنما قطعتها لتحفظ موضع فم رسول الله ﷺ وتبرك به وتصوره عن الإبتدال أ.هـ.

وذكر فضيلة العلامة الشيخ حسين مخلوف مفتي الديار المصرية السابق^(٢) . . . بعد الكلام عن غسل زينب بنت رسول الله ﷺ بعد وفاتها رضى الله تعالى عنها: وأنه ﷺ أمر النساء اللاتي تولين غسلها رضى الله تعالى عنهن أن يخبرنه بعد فراغهن من غسلها، فلما فرغن وأخبرته أعطاهن حقوة بفتح فكون أي إزاره ليجعله على جسدها ثم بعده الكفن.

(١) رواه الترمذی وقال حديث حسن صحيح.

(٢) كتاب فتاوى شرعية وبحوث إسلامية لفضيلة الشيخ حسين مخلوف، ص ٣٥٧.

قال رحمة الله تعالى بعد الكلام على هذا الموضوع مانصه: وقد أعطاهن ﷺ إزاره الشريف وأمرهن أن يجعلنه الثوب الذى يلى جسدها لتنالها بركته ﷺ ببركة ثوبه، وإنما أخره ولم يتاولهن إياه أولاً ليكون قريب العهد من جسده الشريف حتى لا يكون بين انتقاله من جسده إلى جسدها فاصل، لاسيما مع قرب العهد بعرقه المبارك وهذا من أمارات حبه ورحمته وشفقته على ابنته. قال وفيه دليل على مشروعية التبرك بآثار الصالحين.

ويُروى أن الإمام أحمد بن حنبل كانت عنده ثلاث شعرات من الجسد الشريف فأمر أن توضع واحدة على عينه، والثانية على عينه الأخرى، والثالثة على فمه إذا كُفّن تبركاً بآثاره ﷺ والله تعالى أعلم. أ. هـ^(١).

فهل يليق بالمؤمن أن ينكر التبرك بآثار الرسول ﷺ وصحبه وسلم والصالحين؟ وانظر ماجاء أيضاً فى صحيح البخارى فى أواخر كتاب الجهاد والسير فى باب ماذكر من درع النبي ﷺ وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، وماستعمل الخلفاء بعده من ذلك مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآتيته مما يتبرك فيه أصحابه وغيرهم بعد وفاته ﷺ. . راجع هذا الباب أيضاً لتزداد علماً ومعرفةً و يقيناً.

فتأمل رحمنا الله وإياك عظيم حب الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين بل وجميع المسلمين لرسول الله ﷺ، وهم يحتفظون بآثاره عليه الصلاة والسلام ويتبركون بها فى حياته ﷺ وبعد موته. . فكيف يعترض بعض فئة من الناس فى هذا الزمان على الإحتفاظ بآثار رسول الله ﷺ والتبرك بها.

نسأل الله تعالى السلامة والعافية من الفتن ماظهر منها ومابطن.

وفى مختصر البخارى للقرطبى مانصه: قال أبو عبد الله البخارى رأيت قدح رسول الله ﷺ بالبصرة وشربت فيه، وكان اشترى من ميراث النضر بن أنس بشماعة ألف، فقد كان هذا القدح محفوظاً عند الصحابة والتابعين للتبرك بالشرب فيه ولم يسمع عن أحد من الصحابة ولا من أئمة التابعين إنكار ذلك،

(١) المصدر السابق.

ولا الإستخفاف به. فكيف يتوهم أن هذا التبرك وشبهه منهى عنه أو خلاف الأفضل؟ أخرى أن يوصف فاعله بالضلال أعاذنا الله تعالى منه.

قال صاحبى: وبالقياص على ماسبق فإنه يجوز التبرك بآثار الصالحين والانتفاع بها بعد موتهم وانتقالهم إلى الدار الآخرة والفوائد فى هذا الباب كثيرة جداً لاتعد ولا تحصى.

ومن المعجزات الباهرة أن هذه المجموع العظيمة الآتية فى كل وقت وحين لزيارة النبى ﷺ لم يُسمع عن أحد منهم أنه عبد قبره الشريف، وهذا مصداق لقوله ﷺ ودعائه المتقبل عند حبيبه ومولاه جلّ فى علاه: «اللهم لاتجعل قبرى وثناً»^(١).

وعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لاتجعل قبرى وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

نعم لقد استجاب الله تعالى دعاء عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ، فلم يجعل قبره الشريف وثناً يعبد، مع كثرة ازدحام الناس عليه فى كل وقت وحين، وما قصدهم من الزيارة إلا التقرب إلى الله تعالى ورسوله. إنهم من عظيم شوقهم وشدة محبتهم يتهافون على القبر الشريف تهافت الظماء على ورود الماء. نعم إنهم يزدحمون على الرحاب الطاهرة الشريفة لأن الرحاب النبوية فيها الفيوضات المعنوية، والأنوار الباهرة القوية، وقد قيل فيه: «المورد العذب كثير الزحام» وهذا مثل الحجر الأسود الذى هو فى ركن الكعبة المعظمة، فإن الناس يزدحمون على تقبله ازدحاماً لامثيل له فى مواسم الحج، ولم يُسمع قط أن أحداً عبد الحجر الأسود لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام، ولا شك أن ذلك من كرامة الله تعالى على الحجر الأسود وعلى رسوله ﷺ وكذلك لم يُسمع أن أحداً عبد حجر مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام الذى هو عند الكعبة المشرفة من آلاف

(١) رواه مالك وابن أبى شيبة والبخارى.

(٢) رواه الإمام مالك فى الموطأ فى جامع الصلاة جداً ص ١٤٣ ط. الخليلى القاهرة..

السنين، ولا أحد عبد نفس الكعبة المعظمة بيت الله الحرام لافى الجاهلية ولا فى الإسلام.. ف سبحانه الله الذى يجعل سره فيما يشاء من خلقه وما أحسن دين الإسلام ذلك الدين لقيم.

وعن عبد الله بن دينار قال: رأيت عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقف على قبر رسول الله ﷺ فيصلى على النبي ﷺ وعلى أبى بكر وعمر^(١).

قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله فى كتاب «آداب السفر»: يجوز زيارة قبور الصالحين للانتفاع بها لأن كل من يتبرك به فى حياته يجوز التبرك به بعد موته. قال: ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يعارضه حديث «لا تُشد الرحال إلا لثلاث مساجد» لتساوى المساجد فى الفضل دون الثلاثة وتفاوت العلماء والصلحاء فى الفضل فتجوز الرحلة عن الفاضل للأفضل» أ.هـ.

ونضيف أن شد الرحال مقصود به زيارة الصالحين لا المسجد ذاته والاجماع منعقد على أن هنالك حياة بعد الموت وإن كانت تختلف عن هذه الحياة الدنيا:

لاتظنوا الموت موتاً إنه حياة وهو غايات المنى

لاترعبكم هجمة الموت فما هو إلا نقلة من هاهنا

وكما أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون ﴿وَلَا تَحْزَنْ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ فَرَحِينِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٧١﴾

(١) أى كان يقول كما نقول نحن اليوم: اللهم صل على محمد وعليه وصاحبيه (أبى بكر وعمر) وسلم. وكان رضى الله عنه، لشدة كلفه بمتابعة آثار النبوة، يبلغ فى اقتفاء السنة، ولا يكفى بمحاكاة الرسول والسير على نهجه، بل يذهب إلى شجرة الرضوان يتكى إليها، ويجلس تحتها، ويستظل بظلها الوارف، لأنها شهدت تلك البيعة التى يبيع المسلمون فيها نبيهم على السمع والطاعة والنصرة والفداء، ومجاهدة العدو وإعلاء كلمة الله، وسمّاها التاريخ «بيعة الرضوان» كما سُمى الشجرة كذلك، لأن الله يقول فى أهلها ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾ ولم يقل أحد فى هذا الصنيع من عبد الله بن عمر إنه وثنيه، وإلا كان على الصحابة السلام... ١١

(١) آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠ ..

فهؤلاء الأولياء الصالحون؛ أهل الإيمان والتقوى هم أهل السعادة وأرواحهم باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين^(١).

ومن ثم يجوز دعاء المؤمن الميت للمؤمن الحي: ويظهر ذلك من معنى حديث رسول الله ﷺ والقائل فيه: «تعرض على أعمالكم أو أعمال أمتي يوم الاثنين من كل أسبوع فإن وجدت خيراً حمدت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت الله لكم».

وكذلك يجوز دعاء المؤمن الميت للمؤمن الميت:

وسند هذه الصورة هو الحديث السابق حيث لم يقيد الاستغفار فيه للمقتصرين الأحياء من أمة المصطفى ﷺ، وعليه فيشمل الأموات أيضاً بطريق القياس والاولى عسى أن يكون الأموات في أشد الحاجة إلى دعائه ﷺ للتخفيف عنهم في القبر أو يوم القيامة.

قلت: غير أني أرجح كون الحديث قاصراً على الأحياء لأن الدار الدنيا للتكليف وفي العمر متسع يستطيع الإنسان أن يتدارك مافاتة.. وهذا لا يمنع من القول بعموم الحديث للأحياء والأموات مستدلين بالرؤيا الصادقة التي يراها المسلم فتجىء كفلق الصبح نهراً.

فكم من مؤمن رأى في نومه المصطفى ﷺ أو بعض الصالحين فطلب منه الدعاء وإذا صحّ هذا فلا مانع من أن يرى المسلم الحي في نومه ميتين يطلب أحدهما من الآخر أن يدعوا له، ولأمانع من عقل أو شرع وبخاصة إذا عرفنا أن الأرواح لا يعتريها الفناء، فهي كما علمنا بين التنعيم والتعذيب وخير شاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾^(٢).

(١) مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

(٢) آل عمران: ١٦٩.

قال صاحبي: ولهذا فإن الإمام الشافعي، وهو من أحد الأئمة الأعلام بأحكام الدين، وصاحب المذهب المعروف بإسمه، والذي قيل عنه: عالم قریش الذي ملأ طباق الأرض علماً» كان يتبرك بزيارة قبر الإمام أبي حنيفة النعمان مدة إقامته بالعراق بعد موته، وهذا ثابت في أوائل «تاريخ الخطيب» بسند صحيح. . وكان يقول: في قبر موسى الكاظم^(١) «إنه الترياق المجرب».

وسند هذه الصورة الحديث الصحيح الذي رواه ابن أبي الدنيا قال: حدثنا عبد الله قال حدثنا عبيد الله بن عمر قال حدثنا يزيد بن زريع عن حميد قال: قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾^(٢).

ومن المجرب أيضاً أن تزور قبر سيدي أحمد الدردير الموجود بالقاهرة وتقرأ له فاتحة الكتاب ثم تتوجه مباشرة دون أن تحدث أحداً حتى تصل إلى قبر الإمام الحسين رضي الله عنه وتقرأ له الفاتحة فإن الله عزوجل يجيب دعائك ويقضى حاجتك ببركتهما رضوان الله عليهما.

ومما قاله المقرئ: «قبر السيدة نفسية رضي الله عنها أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر».

وكذلك قبر السيدة زينب رضي الله عنها بنت الإمام علي كرم الله وجهه بالقاهرة من الأماكن المباركة المجاب عندها الدعاء.

تشبهوا بالرجال إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

ومحبة الأولياء تجارة لن تبور لما دل عليه قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»، فمن أحبهم سعد بعدهم، وفاز بفوزهم، ورفع في درجتهم، وصدق القائل.

(١) الإمام موسى الكاظم هو أحد الأئمة الإثنا عشر للشيعة.

(٢) الشوري: ٢٣.

عوداً على بدء:

قلت: أما زلت تقصد التوسل بالصالحين؟

قال صاحبي: أما التوسل إلى الله تعالى بجاه أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأوليائه الصالحين فليس شركاً ولا حراماً ولا هو بدعة مستحدثة في الدين، فإنما هو محبوب ومندوب إليه شرعاً.

قلت: إن كان عندك أدلة أخرى على مشروعيته فزدني بها، قال: نعم. وقد دل على مشروعيته الكتاب والسنة القولية والفعلية وعمل السلف الصالح عن الصحابة والتابعين إلى وقتنا هذا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) ﴿١﴾ فيؤخذ من هذه الآية الكريمة أنه كما يكون إكرام الأمة، ورفع العذاب عنها بسبب استغفارهم، كذلك يكون بسببه ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (٢).

فلولم يكن التوسل صحيحاً لما كان هناك فائدة لقوله: ﴿جاءوك﴾ وقوله: ﴿واستغفر لهم الرسول﴾.

ونحن نعتقد أن الأنبياء والأولياء أحياء في قبورهم، وأن منزلتهم عند الله تعالى لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل بل هم بعد الموت أشد قرباً من الله تعالى وأرفع مكانة عنده، وقد قالوا: «الولي كالسيف في غمده فإذا مات سُلَّ من غمده» وذلك لأن روحه في الدنيا كانت مشغولة نوعاً ما بتدبير البدن وعوائق البشرية، فإذا مات زالت عنه هذه العوائق بالكلية، وبقيت روحه خالصة في توجهها إلى الحق واقتباسها من أنواره القدسية فيقوى بذلك نورها وسلطانها، وتزداد أشعة أنوارها المنعكسة على من يلوذ بها من ذوى الحاجات وأرباب الإرادات، وقد أخبرنا الرسول ﷺ: أن حياته ومماته سواء؛ في انتفاعنا بشفاعته، وعود بركاته علينا حيث قال في الحديث الصحيح: «حياتي خير لكم تحدثون وتحدث لكم، فإذا مت كانت وفاتي خيراً لكم، تعرض على أعمالكم فإن

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) النساء: ٦٤.

وجدت خيراً حمدت الله تعالى، وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم" اللهم أجزءنا خير الجزاء.

وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى التوسل ووقع منه ومن صحابته، وعن تابعيهم كما سبق أن قلنا ونقول: فقد صح أنه دعا لفاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال في دعائه: «الله الذي يحيى ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين»^(١).

وعن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وهم جلوس معه فشكا إليه ذهاب بصره فأمره بالصبر فقال: ليس لي قائد وقد شق علي بصرى فقال له: ائت الميضة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: «اللهم إني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي لتقضي لي فشفعي في، قال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيراً، كأن لم يكن به ضرر»^(٢).

وتوسل الصحابة به ﷺ في الاستسقاء وغيره ثابت في الصحيحين. وتوسل عمر رضي الله عنه بالعباس بن عبد المطلب المذكور في صحيح البخاري. ففيه عن أنس أن عمر رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب. وقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك فشقنا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا فيسقون»^(٣).

قلت: وللمرحوم الشيخ الدجوى في التعليق على هذه الحادثة كلام جميل يتلخص في أن عمر لم يقصد بهذا الصنيع الإعلان عن أن التوسل لا يكون إلا بالأحياء فقط، ولكنه قصد إلى أن التوسل يجوز بالمفضول والفاضل بدليل أن المسلمين كان فيهم علي رضي الله عنه، في هذا الوقت وهو خير من العباس وفيهم عمر وهو أفضل بولايته أمر المسلمين. . علي أن عمر كان يهدف دائماً أبداً

(١) أخرجه الطبراني ووثقه ابن حبان والحاكم عن أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي وصححه، رتسائي والبيهقي والطبراني بأسانيد صحيحة.

(٣) وكان ما قاله العباس كما في الفتح: اللهم إنه لم يزل بلاء (لا يذهب) وألم يكشف إلا بنوبة، وقد توجه القوم بي إليك لكان من نبيك، وهذه أبدنا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث.

إلى عدم شيوع الفتنة في صفوف المسلمين، فهو يأمر بعدم تدوين الحديث لئلا يختلط بالقرآن ويشته به، ويأمر بعدم إنتقال المحدثين إلى الأمصار لئلا يوجهوا الناس إلى الإشتغال بالحديث ومدراسته، ويكون ذلك صرفاً لهم عن القرآن الكريم، ويأمر بقطع شجرة الرضوان التي كان ابنه عبد الله يستظل بظلها، ويتكئ إليها، لأنه خشي أن يتخذها المسلمون منسكاً للعبادة والطاعة.. وهذه الصلاة التي يرجو الناس بها المطر، خاف إن أبطأ عليهم الغيث أن ينزل ذلك بقدر النبي عندهم فيظنوا أن جأه عند ربه قد تولى بموته، ولم يعد له من المزية ماكان له من قبل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) (١).

قال صاحبى: دعنى يا صديقى أكمل حديثى، وأصل منه ماانقطع.
قلت: على الرحب والسعة.

قال: وروى الطبرانى والبيهقى والترمذى بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى زمن الخلافة فى حاجة له، فكان لايلتفت إليه، فرجا عثمان بن حنيف أن يكلمه فى شأنه، فعلمه الدعاء السابق، وهو: «اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك... إلخ». فتوضأ الرجل وصلى ثم دعا به كما علمه، ثم جاء إلى باب عثمان بن عفان فأخذه الخادم، وأدخله عليه، فأجلسه بجانبه على «الطفسة» ثم قضى حاجته، وقال له: إذا عُرِضت لك حاجة فأتنا، فلما قابل الرجل عثمان بن حنيف قال له: جزاك الله خيراً، ماكان ينظر فى حاجتى، كلمته فيها؟ فقال له: والله ماكلمته، ولكن كنت عند رسول الله ﷺ فدخل عليه أعمى وذكر الحديث السابق.

وقصة الإمام مالك مع المنصور التى قال له فيها حينما سأله: أأستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل قبر النبى ﷺ وأدعو؟

فقال له: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام، مشهورة ومذكورة في كتابي الشفا والمواهب وغيرهما.

وكان معاوية رضى الله عنه يستقى بيزيد بن الأسود ويقول: اللهم إنا نستقى بخيرنا وأفضلنا، إلى آخر ما يطول إستقصاؤه، وفيما ذكرناه الكفاية..

التوسل أحد الأسباب العادية:

ولا يخرج التوسل في الحقيقة عن كونه أحد الأسباب العادية التي جعلها الله تعالى مقتضيات لمسيباتها، وقرن بينهما في الوجود مع كون التأثير له وحده جل وعلا، فيكون حكمه حكم بقية الأسباب العادية التي يكره فيها الإفراط والمغالة كما يقع من بعض الجهال، والتفريط كما يقع من أهل القسوة والجفاء المنكرين لخواص أولياء الله تعالى الثابتة، وكراماتهم الواقعة بالمشاهدة والعيان؛ إذ ليس من المستحيل، بل ولا من البعيد أن يعلق الله تعالى قضاء حاجة من الخواج، كشفاء من مرض أو سعة في رزق على التوسل بأحد عباده الصالحين!!

وفي هذه الحالة لا يمكن أن يحصل المطلوب من الشفاء وغيره من غير طريق التوسل بحال، لا لأن التوسل مؤثر بذاته، ولا لأن الولي أو النبي هو الذي خلق الشفاء وأوجده بل لما سبق في علمه تعالى من تعليق هذا الشفاء على التوسل المذكور.

فائدة التوسل ثابتة بالنص واقعه بالحس:

وأما فائدة التوسل فهي ثابتة بالنص واقعه في الحس لما سبق في الأحاديث المروية من قول أنس في قصة استسقاء عمر رضى الله عنه بالعباس فيسقون.

ومن قول عثمان بن حنيف في حديث الضرير الذي توسل بالنبي ﷺ..
فوالله ما تفرقنا حتى دخل علينا بصيراً كأن لم يكن به ضرر.. إلى غير ذلك مما يحول بيننا وبين سرده خشية الإطالة، وقد عاد على الفقير شخصياً من بركات أهل البيت وغيرهم من أولياء الله تعالى ما لا يمكنني أن أرتاب فيه؛ إذ لا يقبل شكاً ولا تأويلاً، حتى لو لم يكن لدى من الأدلة على صحة التوسل إلا هذا لكان كافياً عندي!!

على أن الدعاء والطلب - على شرط أن يكون موجهاً إلى الذى يجيب الدعاء، ويكشف البلوى، ويدفع الضرر، ويصرف السوء، ويرحم الخلق - لا يخلو أن يكون فى هذا المكان الطاهر، والساحة النقية، والبقعة المباركة، وهى المسجد، وفيه يقول من اجتبه ربه واصطفاه «إذا دخلتم - أو أتيتم - رياض الجنة فارتعوا» وقد سئل: ما رياض الجنة؟ فأجاب بأنها المساجد... وأى مكان يستجيب الله فيه الدعاء أركى وأنقى من هذا المكان - ويُخيل إلى أن جماعة ممن لا يروقهم هذا الكلام سيقولون... فإذا كان الولي مشكوكاً فى مكانه، أو تعددت أمكته... أيدعو الداعي حينئذ ثم يكون دعاءه مظنون للاستجابة... والجواب على ذلك بالتسليم أيضاً، لأن بعض العلماء قالوا إن للرجل الصالح أكثر من روح واحدة، وبناء على هذا يكون للحسين رضى الله عنه مزار بكر بلاء ومصر من غير نكران، وهذا القول قاله جماعة من شراح البخارى، وقد كان النبى ﷺ يحدث أصحابه بأن من غلبت عليه طاعة من الطاعات دخل الجنة من باب خاص، وأن الصائمين يدخلون من باب يُسمى «الريان» وهكذا... وعندئذ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: بأبى أنت وأمى يارسول الله... هل على من يدخل من تلك الأبواب كلها من حرج؟ فقال له: «لا وأرجو أن تكون منهم»... وقالوا إن الرجاوة من الرسول الله ﷺ محققة... فأبو بكر رضى الله عنه سيدخل من هذه الأبواب كلها لا محالة فى وقف واحد... وصوّروا ذلك بأن للولى أكثر من روح واحدة... ولا يضيرنا التصديق بذلك كله لأنه لا يترتب عليه محال، ولا يلزم من حصوله منكر، وبخاصة إذا علم أن اليوم الآخر لا يجرى على نوايس الحياة، ولا يخضع لأساليب الدنيا، ولا يتمشى مع نظامنا الذى ألفناه... وأن الحديث القدسى يقول «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وإلى هنا نستطيع أن نقول للذين يهاجمون الأولياء، ويحاربون زيارتهم، ويمنعون التردد على أمكنتهم، والافتباس من نورهم، والتملى من الخير الذى فى ساحتهم، وما يفيض الله فى رحابهم، إنكم تجاهدون فى غير عدو، وتقطعون

بَحْكَمَ لِعَمَلٍ لَا يَجْدَى، وَتَحْلِبُونَ لَأَنْفُسِكُمْ مَقْتَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَرْضِيهِمْ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوهُمَا يَقُولُ قَيْسُ بْنُ الْمُلُوحِ:

أَمْرٌ عَلَى الدِّيارِ دِيَارٍ لَيْلَى أَقْبَلَ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارِ

وَمَا حُبَّ الدِّيارِ شَغَفَنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حُبَّ مَنْ سَكَنَ الدِّيارِ

قلت: وكلمة الفضل في ذلك كله أن الذي يتوسل برجل طيب له عند الله منزله، ولا يجعله شريكاً لله في الخلق والتكوين، والقدرة والإرادة ولكنه يتوسل بمكانته الملحوظة، وقدره المرموق لأنه عمل ما يستحق به أن يكون له عند ربه هذا الجاه، فضلاً عن كون ذلك إغراء بإقتفاء آثاره، وتتبع أخباره، والإقتداء به، والمحاكاة له. . . والدين الإسلامي لم يحظر القدوة الصالحة بحال من الأحوال، وهذا هو الرسول الكريم يحث عليها ويغري بها، إذ يقول: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وكذلك التربية الحديثة تقول بها، وترجع الفضل الأول في نبوغ النابغين وعلم المخترعين، إلى اتخاذ القدوة، والجرى وراء المثل العليا من رجال الفكر والمعرفة والاجتهاد والسبق، ومن هؤلاء الذين دوى بهم التاريخ، ووطننت بأسمائهم الصحف والمجلات، وكان لهم بين معاصريهم امتياز جعلهم أهلاً لهذا الفضل الذي نالوه، والدرجات التي حصلوا عليها:

لَسْتُ وَإِنْ أَحِبَّابُنَا كَرُمْتَ يَوْمًا عَلَى الْأَبَاءِ نَتَكَلَّ

تِنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَتِينِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

استطراد

اعلم وفقني الله وإياك أن أول مقصد من مقاصد الإسلام تجريد التوحيد وإخلاص الدين لله وحده قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ١ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿[الزمر: ٢، ٣] وقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

الذين ﴿ [البينة: ٥] ، وتجريد التوحيد لا يتم إلا بالتوجه الكلى لله من غير التفات إلى غيره .

ولهذا حرص الرسول ﷺ على أن يربط القلوب بالله وحده، فكان يعلم أصحابه التوكل على الله والثقة به، والالتجاء إليه فيقول: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» .

ويقول: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما تزرق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» كما كان يحذرهم أن ينهكوا حرمة التوحيد ويجنبهم كل ما هو ذريعة إلى الشرك فحظر عليهم الحلق بغير الله فقال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآياتكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» .

وروى البغوي عنه ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك» .

بل كان يصحح ما كان يقع في كلاً منهم من أغلاط، حماية لجانب التوحيد .

روى الطبراني في معجمه: «أنه كان في زمن النبي ﷺ - منافق يؤذى المؤمنين فقال الصديق: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق

فجاءوا إليه فقال: إنه لا يُستغيث بي، وإنما يستغاث بالله

وقال بعض الأعراب: «ما شاء الله وشئت» .

فقال: أجمعتني لله ندأ بل ما شاء وحده» .

وما دام التوحيد الخالص هو جوهر الإسلام ولبه كان كل ما اتصل به من صميم الإسلام، وكل ما خالفه، أو كل ذريعة إلى الشرك باطل دخيل في دين الله .

وعلى هذه القاعدة نقول: إن التوسل ما دام لم يمس جانب التوحيد فهو توسل مشروع .

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقد جاء في السنة أمثلة لدعاء الله بأسمائه وصفاته نورد بعضها:

١ - عن معاذ بن جبل: أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: «يا ذا الجلال والإكرام». فقال: استجيب لك فل تعطه». (رواه الترمذى وحسنه).

٢ - وعن أنس أنه ﷺ سمع رجلاً يدعو (اللهم أنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم) فقال النبي ﷺ: «لقد سأل الله باسمه الأعظم» (رواه أحمد وأصحاب السنن: أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الحاكم وابن حبان).

٣ - وعن بريدة أنه ﷺ سمع رجلاً يدعو ويقول: «اللهم أنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». فقال: «والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى». (رواه أصحاب السنن وصححه الترمذى وغيره).

ويلحق بهذا التوسل الإيمان بالله والعمل الصالح، جاء فى القرآن حكاية عن أولى الألباب ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وفى الصحيحين حديث نفر الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فتوسل كلٌ منهم بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ونحو.

ومن هذا القبيل أن يطلب من الحى أن يدعو له، وقد كانت الصحابة يسألون الدعاء من النبي ﷺ، وعن عمر أنه استأذن رسول الله ﷺ فى العمرة فأذن له وقال: «فلا تنسنا يا أخى من دعائك» (رواه الترمذى).

وفى البخارى أن عمر استقى بالعباس وقال: «اللهم إنا كنا إذا أجبنا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاستقنا فيُقون».

ومعنى التوسّل به أن يدعو هو وهم يدعون معه، وقد مرّ بك ما قاله العباس رضى الله عنه فارجع إليه.

ونظير هذا ما أخرجه النسائي وابن ماجه والترمذى وصحّحه: أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله: إني أصبت فى بصرى فادع الله لى.

فقال له النبى ﷺ: «توضأ وصل ركعتين ثم قل:

«اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد إنى استشفع بك فى ردّ بصرى، اللهم فشّقه فى. وقال: فإن كان لك حاجة فمثل ذلك، فردّ الله بصره».

والظاهر أن الأعرابى إنما توجه إلى الله بدعاء النبى له، ودعائه لنفسه كما أشارت إلى ذلك الروايات.

أما إذا كان التوسّل يخدش جانب التوحيد فهو باطل مردود.

كان يتوسل بأحد من الخلق أو بحق أحد من الصالحين أو بجاهه معتقداً أن للتوسّل به تأثيراً فى الحصول المطلوب.

وإنما كان هذا مجانباً لعقيدة التوحيد، لأن التوحيد يقتضى ألا فاعل ولا مؤثر إلا الله وحده، وأن إرادة الله لا تتأثر بشيء، والله يفعل شيئاً لأجل أحد أما إذا كان المتوسّل لا يعتقد أن للمتوسّل به تأثيراً فى الحصول المطلوب.

بل يرى أن الكل من الله وحده، وأن ما يفعله إنما هو مجرد مباشرة أسباب كمباشرة الأسباب العادية، فهذا لا يخدش عقيدة التوحيد ولا يصل إلى حد الشرك.

عن عقل بن يسار رضى الله عنه قال: قال أبو بكر رضى الله عنه وشهد به على رسول الله ﷺ قال: «ذكر الشرك فقال: هو أخفى فيكم من ديب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول: «اللهم أنى أعوذ بك أن أشرك بك فيما أعلم واستغفر لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات».

ويجب أن لا ينفك المسلم في كل أوقاته عن هذا الدعاء، فإن كل جزئيات الزمن لا تخلو من فتن هوج، فلا بد أن يكون دائم الاستحضار لهذا الدعاء لينفي عن نفسه دن الشرك الخفى أعادنا الله تعالى منه.

وعن ابن جريج قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «الشرك أخفى فيكم من ديبب النمل. فقال أبو بكر: هل الشرك إلا ما عُد من دون الله؟ قال: يا أبا بكر الشرك أخفى فيكم من ديبب النمل: إن من الشرك أن يقول الرجل ما شاء الله وشئت، ومن الند أن يقول الرجل: لولا فلان لقتلني فلان، أفلا أدلك على ما يذهب الله عنك به صغار الشرك وكباره؟ قال: بلى يا رسول الله، قال تقول كلا يوم ثلاث مرات: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، واستغفر لما لا أعلم».

وعن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد كنت أكره لكم أن تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد».

ثم ماذا بعد..؟

لقد كثر الخلاف وتشعب الجدل بين العلماء في هذا النوع.. كالتوسل فمن مانع.. ومن يجوز؟!!

والذى تشهد له الأدلة، أن الحظر مُقدم على الإباحة سداً للذريعة، وبعداً عن مظنة الشبهة، لا سيما فى هذه الناحية العقدية التى تمس صميم الدين.

وعندنا من الأدعية الماثورة الصحيحة.. التى لم يختلف فيها ما يُغنيا عن هذه البدع المحدثّة التى تعلّق الناس بها حتى حُجّبوا عن نور النبوة، وطمسوا جمال التوحيد.. فإن قلت فما معنى الكلام الذى ذكرتموه سابقاً؟

قلنا إن أهل اليقين لا تضرهم الأسباب والله أعلم بالصواب.

ثم قال صاحبي: تضمن حديثنا - أين منهجين مختلفين فى قضية واحدة فماذا ترى؟

قلت: أرى، والله أعلم أن كلا المنهجين على حق.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: ذلك أمرٌ شرّحه يطول...